مداخلة بعنوان

دور الأمير عبد القادر في إرساء قواعد القانون الدولي الانساني

الملتقى الوطني بجامعة غرداية حول:

تطبيقات القانون الدولي الانساني

الثورة الجزائرية نموذجا

06/05 مارس 2019

مراد ماشوش — **أ.د بوزيد كيحول**

سنة رابعة دكتوراه القانون العام الاقتصادي — **أستاذ التعليم العالي**

جامعة غرداية

مقدمة:

اشتهر الأمير عبد القادر بن محي الدين بصفقته مؤسس الدولة الجزائرية الحديثة، بتسامحه و إنسانيته باعتباره رجل قانون و سياساً محنكاً، حيث أنه كان رائداً و سباقاً في مجال تقنين قواعد القانون الدولي الإنساني و ذلك للإشارة إلى الاتفاقيات التي وضعت اللبنات الاولى للقانون الدولي الانساني الذي يهدف من خلاله إلى حماية الإنسان و صيانة حقوقه لاسيما أثناء النزاعات المسلحة، و منها اتفاقية باريس سنة 1857 التي ألغت بموجبها القرصنة و مهاجمة السفن ثم قانون ليبر 1863 الموجه إلى الجيش الشمالي أثناء الحرب الانفصالية الامريكية الذي يحث على التعامل الاخلاقي مع المناطق المحتلة، بعدها معاهدة جنيف لسنة 1864 و التي تتعلق بالجنود الذين يصابون بالجروح في ساحات القتال، وصولا إلى

اتفاقيتي لاهاي، الاولى سنة 1899 المتعلقة باحترام قواعد و عادات الحرب و الثانية سنة 1907 و التي أعادت النظر في الاولى.

رغم هذه المحاولات من أجل أنسنة الحروب و وضع قواعد دولية ملزمة تحكم النزاعات الدولية، سبقتها أفكار الامير عبد القادر من خلال ممارساته أثناء معاركه ضد الغزو الاستعماري الفرنسي للجزائر منذ سنة 1830، هذه الممارسات و المعاملات التي تكرست ضمن قواعد القانون الدولي فيما بعد من خلال الواعد التي وضعها الأمير و ظهرت جلياً سنة 1837 و ذلك حتى قبل ان تؤسس لجنة الصليب الاحمر من خلال تبادله الشهير للأسر في سيدي خليفة، و بعدها كانت له محاولة أخرى لتقنين أسس القانون الدولي الإنساني و يعود ذلك لسنة 1843 حين أصدر الامير عبد القادر مرسوماً قدم فيه وصفاً لما تمثله المعاملة الإنسانية و الحفاظ على حياة البشر و صون كرامتهم و احترام حقوق المساجين، حيث حدد بالتفصيل القواعد التي تحكم وضعية الأسرى حيث نص صراحة **"" كل جندي للأمير، ممن لديه مسجون فرنسي او مسيحي، فإنه مسؤول على طريقة معاملته و يقع تحت طائلة العقوبة الشديدة في حالة ما إذا اشتكى المحبوس من أذى أو سوء معاملة..."**، حيث تكرست هذه الافكار و أصبح مبدأ من مبادئ اتفاقية جنيف الثالثة لسنة 1949 من خلال المواد 12 و13 و هي تأكيد على مسؤولية السلطة القابضة للسجناء و عدم تحقيرهم و سبهم و سوء معاملتهم.

و مما سبق نطرح التساؤل التالي: **في ما يتجلى دور الامير عبد القادر في اسهامه في ارساء القانون الدولي الانساني؟المحور الأول : الأمير عبد القادر الجزائري مراحل حياته وملامح شخصيته**

لا يمكن تحديد ملامح صورة الأمير عبدالقادر في ذاكرة التاريخ دون الإشارة إلي مراحل حياته وذكر مميزات شخصيته

1- مراحل حياة الأمير عبدالقادر

عاش الأمير عبدالقادر ثلاث مراحل متميزة بخصوصيتها وأحداثها ودلالاتها، ، الأولى قضاها في طلب العلم وتعرف فيها إلى أوضاع البلاد العربية عن طريق الحج والثانية عاشها في الجهاد و مقاومة العدو، أما الثالثة فقد قضاها في ديار الغربة أسيرة في فرنسا ومجاهداً محتسبا في بورصة ودمشق.

أ- المرحلة الأولى (1249-1222 هجرية/ 1807 -1832 م

ولد الأمير عبدالقادر في 15 من رجب سنة 1222 هجرية سبتمبر 1807، بمقر أسرته بالقيطنة الواقعة على سفح جبل إستانبول على الجانب الأيسر الوادي الحمام وعلى بعد حوالي عشرين كيلومترا عن مدينة معسكر، ونرى في رعاية والده مقدم الطريقة القادرية وشيخ زاوية القيطنة، وتلقى تعليمه الأولي في كتاب الزاوية عن أبيه ويعض شيوخ الزاوية ، فأجاد حفظ القران واستوعب مبادئ العلوم الدينية واللغوية ، بعدها ارتحل وهو مراهق لم يتجاوز الخامسة عشرة من عمره إلى آرزيو ليدرس على قاضيها الشيخ أحمد بن الطاهر، قبل أن يتحول إلى مدينة وهران وينتسب إلى مدرسة أحمد بن خوجة المخصصة لأبناء الأعيان، حيث قضى فيها ما يقرب من سنة انكب فيها على توسيع معارفه اللغوية ومعلوماته الفقهية وصقل ملكاته الأدبية والشعرية[1].

بعد عودته إلى مسقط راسه (1823م) سارع والده إلى تزويجه لا لا خيرة ابنة عمه سيدي، بعد ذلك عزم على مرافقة أبيه لأداء فريضة الحج وزيارة مقام شيخ الطريقة القادرية سيدي عبد القادر الكيلاني بغداد ، فتوجه محبة أبيه وجمع من عشيرته نحو الحج، لكنهم لم يغادروا ناحية وهران حتي تعرض لهم أعوان باي وهران حسن بن موسى وحولوا اتجاههم إلى مدينة وهران ، حيث وضع الشيخ محيي الدين وابنه

1 الحاج أحمد الشريف الزهار، مذكرات، تحقيق و نشر أحمد توفيق المدني، الشركة الوطنية للنشر و التوزيع، الجزائر، 1974، ص35

عبدالقادر رهن الحجز في انتظار ما أمر به الباي في شأنهما، على أن سمعة والد الأمير عبد القادر الشيخ محيي الدين الطيبة دفعت بعض رجال المخزن إلى التدخل لدى الباي في شأن إطلاق سراحهما، وبعد هذه الحادثة التي سوف توتر في موقف الأمير عبدالقادر فيما بعد من الحكام العثمانيين ودفعه إلى التخوف والحذر من موظفي وأعوان البابليك، غادر الشيخ محيي الدين وابنه عبدالقادر مع بعض أفراد أسرته القيطنة لأداء فريضة الحج في شعبان 1230 هجرية/ مارس 1825 م، فانتقلوا عبر طريق التل الواصلة بين الجزائر وتونس، ومنها ركب البحر مع أبنه ومن كان يرافقه إلى الإسكندرية فزاروا ، ثم انتقلوا إلى القاهرة ، ولعله أعجب بتلك الإصلاحات التي أدخلها محمد علي على القاهرة ، وأدوا فريضة الحج[1].

ب-المرحلة الثانية (1249-1265هجرية/ 1832- 1847 م

تعتبر أهم مرحلة في حياة الأمير عبدالقادر لما حفلت به من تطورات خطيرة وأحداث جسام سواء فيما يتصل واجهته للفرنسيين ، أو فيما يتعلق بمحاولته لبناء دولة حديثة ، فقد ابتدأت هذه المرحلة بالتحاق الشاب عبدالقادر بالمتطوعين للجهاد صحبة أبيه الشيخ محيي الدين ، فاشتهر أمره وعرف بشجاعته وحسن تدبيره وحنكته وصبره وجلده في أول اشتباك مع القوات الفرنسية عند اسوار مدينة وهران ، وهذا ما أهله ليتولى قيادة الجهاد ، فبويع عبدالقادر على الجهاد عند شجرة الدردارة بسهل غريس في رجب 1298 هجرية/ 27 نوفمبر 1832 م، وحصلت له البيعة العامة بمعسكر 17 من رمضان 1248 هجرية 4 من فيفري 1833 م) واستقدم المتطوعين وألّف السرايا وجمع القبائل على الجهاد لنصرة العقيدة و تحرير الوطن، فحقق نجاحات أرغمت قائد الجيش الفرنسي بوهران دي ميشال (Demichels) على عقد معاهدة معه (29 من فيفري 1834 م.

ويعد تولي تريزال قيادة الجيش الفرنسي بوهران تجددت المعارك، فألحق الأمير عبدالقادر بالجيش الفرنسي الهزيمة في معركة المقطع (18 من جوان 1835 م)، وحتي يتجاوز الفرنسيون هذه النكسة الخطيرة تحولوا بسرعة إلى انتهاج سياسة المواجهة وتجريد حملات مستخدمين المدفعية في هجومهم على مدن الأمير عبدالقادر الرئيسة ، وهذا ما مكنهم من الاستيلاء على معسكر ثم احتلال تلمسان، لكن ذلك كان الدافع للأمير إلى مواصلة ضغطه على القوات الفرنسية وتكبدها خسائر في الرجال والعتاد حتي اضطر الجنرال بيجو إلى أن يعترف بسيادة الأمير عبدالقادر على الناحية الغربية والوسطى من الجزائر في إطار سياسية الاحتلال المحدود التي كرستها معاهدة التافنة (30 ماي 1837م)، الأمر الذي سمح للأمير بالتفرغ لتنظيم دولته وبناء مؤسساتها وإخضاع المناوئين له والرافضين لسلطته وفي مقدمتهم كراغلة وادي الزيتون، وزعيم الطريقة التجانية بعين ماضي.

إن عدم احترام روح معاهدة التافنة من طرف الفرنسيين بتقصيرهم بنودها حسب مصلحتهم، عندما خولوا أنفسهم حق العبور عبر المناطق التابعة للأمير، وتبعا لهذا الموقف اضطر الأمير إلى إعلان الجهاد ضد الفرنسيين، وكان الأمير عبدالقادر قد عقد اجتماعا طارئا في معسكر أبي خرشفة بنواحي مليانة دعا إليه جميع قواد دولته وولاة مملكته وجمعا من العلماء والفقهاء وأهل الرأي في أوائل شهر جوان 1839م، للتداول في الوضع، وفي موقف الفرنسيين من شروط معاهدة التافنة ، فاتفقت الكلمة على الوقوف في وجه تجاوزات العدو، فبادر الأمير عبدالقادر من مقر إقامته بالمدية بمراسلة الماريشال فالي (Mustehui Valee) في 18 من نوفمبر 1839 م محملا الفرنسيين مسؤولية خرق المعاهدة وتسببهم في إشعال الحرب بقوله : **"بينما كنا معكم في حال سلم ومعاهدة ، فلم نشعر إلا وقد فعلتم ما ينافي ذلك وتجاوزتم الحدود المعلومة بين بلادنا وبلادكم بغير إذني ولا تقدم مخابرة في ذلك ولا علم.. ، والحال إن فعلكم هنا هو نفسه ناقض للمعاهدة مبطل لها، وبناء عليه أعلن لكم أنني عزمت على استئناف الحرب و الله المستعان فارفعوا وكلائكم من بلادي و أنذروا قومكم المقيمين فيها و المسؤولية عليكم وحدكم"**[2].

---

1 ناصر الدين سعيدوني، محمد عثمان باشا، ضمن مشاهير المغاربة ، دون دار نشر، الجزائر، 1995، ص75

2 عبد الرحمن الجيلالي، تاريخ الجزائر العام، الجزء 4، دار الثقافة، بيروت، الجزائر، 1980، ص28

اتخذ الفرنسيون في حربهم عيد الأمير عبدالقادر أسلوب الحرب الشاملة المعروفة حاليا بحربه الأرض المحروقة، التي لخصها الجنرال بيجو(Bugend) في تهديد وجهه إلى رجال الأمير بقوله :: "لن تحرثوا الأرض، وإذا حرثتموها فلن تزرعوها ، وإذا زرعتموها فلن تحصدوها) . وقد التجا الفرنسيون في حربهم هذه إلى وسائل القمع والتنكيل والتدمير، وهنا ما سجله القائد ويست (Commandant Weste) في مذكراته بقوله: "أثناء حملة شنت بمنطقة جنوب مدينة الجزائر كان عدد االدواوير القرية التي أحرقت و كميات المحاصيل التي أتلفت شيئا لا يصدق، فقد كنا لا نرى على جانبي الطريق ونحن نجتاز تلك المناطق سوى لهيب النار"[1].

أدت هذه الخطة التدميرية إلى سقوط مدن دولة الأمير ومراكزه العسكرية (1842 م) وأرغمت الأمير على التحول إلى حرب العصابات (1847-1844م) التي واجهها الفرنسيون بتكثيف الهجمات على القبائل حتى تضطر في الأخير إلى الامتناع عن تقديم أي عون للأمير وأتباعه ، وأوضح الجنرال بيجو في رسالة له إلى وزير الحربية الفرنسي بتاريخ 14 من نوفمبر 1845 م، خطته الحربية المعتمدة على أسلوب الأرض المحروقة، بهذه الكلمات المعبرة: **"هل يمكن أن تتحرك في كل الاتجاهات في الوقت نفسه ؟ وهل يمكن سد كل المنافذ أمام الأمير ؟ وهل يمكن تجنيد مائة ألف رجل لمطاردته ؟ بكل بداهة لا يمكن ذلك، ولكن يمكن مباغتة السكان الذين يمدونه بالفرسان ويزودونه بالمؤن، بهذا ستتضرر هذه القبائل بعد ثلاثة أو أربعة أشهر، وستفقد الكثير من رجالها الذين سوف تباد قطعانهم وتلف مطامرهم، بحيث لا يجد الأمير في كل مكان حل به سوي البوس والشقاء. إن حرية كالتي نخوضها مع الأمير لا يمكن أن تنتهي الا بعمل متواصل لقواتنا العسكرية يكون فيه خراب العرب وقتل فرسانهم، وهذا ما يجب أن تعرفه الأمية الفرنسية**. وبالفعل وجد بيجو تجاوبا من نواب الشعب الفرنسي، فلم يعترضوا على زيادة الاعتمادات المالية المخصصة للحرب في الجزائر ولم يمانعوا في إرسال فرق جديدة من الجيش إلى الجزائر، فارتفع بذلك عند القوات الفرنسية العاملة بالجزائر من 000 83 إلى 000 108 جندي[2]، وهو ثلث الجيش الفرنسي الذي كان يعتبر آنذاك أول الجيوش البرية في العالم، هذا فضلا عن تجنيد 000 10 عون ومتطوع من قبائل المخزن في صفوف الجيش الفرنسي ليكونوا طلائعه وعيونه في حرب العصابات التي كان يشنها الأمير عبد القادر[3].

ج- المرحلة الثالثة 1265 - 1300 هجرية/1847-1883م)

عاشها الأمير عبدالقادر معتقلا اسيرة بفرنسا ومهاجر محتسبا في المشرق ، ابتدأت هذه المرحلة من حياته بنقله إلى فرنسا وإقامته معتقلا في مدينة بون Pan جنوب فرنسا ثم في أمنبروان (Ambroine) ، بعدها تحول الأمير عبدالقادر إلى بورصة الأناضول بعد أن أطلق سراحه في 2 ديسمبر 1852 م، قبل أن يستقر به المقام بدمشق الشام (1859م) حيث قضى سنوات عمره الأخيرة متفرغا للعبادة والذكر، دؤوبا على عمل الخير والصلاح، مواظبة على المطالعة والتأمل[4].

كان في بدء هذه المرحلة امتحانا صعبا وأليما لم يجد الأمير عبدالقادر معه بدا من اختيار احد الأمرين أحلاهما مر، فاختار الحل الأخير متناسية يقول الشاعر وظلم ذوي القربى اشد مضاضة على المرء من وقع الحسام المهند[5].

وما كان الأمير عبدالقادر أن يضطر إلى التسليم لولا تحول سلطان المغرب عنه ومحاولته وضع حد لجهاده بالقضاء عليه أو إلقاء القبض عليه عملا بنصوص معاهدة لالا مغنية، التي اعتبرت الأمير خارجا

---

1 ناصر الدين سعيدوني، مرجع سابق، ص68

2 عبد الجليل التميمي، بحوث و وثائق التاريخ المغاربي، الدار التونسية للنشر، تونس، دس، 260

3 المرجع نفسه

4 ناصر الدين سعيدوني، مرجع سابق،ص387

5 زكية زهرة، التنافس الفرنسي الانجليزي على الجزائر و موقف الباب العالي منه، رسالة ماجستير، د. ذكر الجامعة، الجزائر، 1997، ص123

على القانون، فكان الأمير عبدالقادر بعد أن تفرقت اغلب القبائل من حوله أمام خيارين، إما التسليم للذين حاربهم وهم الفرنسيون أم اللذين تخلوا عنه وهم مخزن المغرب الأقصى، فاختار ما كان صائبا حسب قول السلطان العثماني عندما سأل لمن سلّم الأمير عبدالقادر نفسه .

انتهت الاتصالات في شأن التسليم مع القائد لامولیسیار الذي تعهد باسم ملك فرنسا للأمير عبدالقادر بإعطائه عهد أمان اشترطه مسبقا مع الموافقة على منحه حق المرور مع اتباعه من مرسى جامع الغزوات إلى ميناء الإسكندرية أو إلى عكا، وعندما تأكد الأمير من الأمر لم يتردد في التوجه إلى مقر القائد الفرنسي في 13 من ديسمبر 1847 م، فالتقى بالعقيد دومونتوبان (De Mantmuhan) بالقرب من سيدي إبراهيم حيث ألحق الأمير سابقا الهزيمة بالجيش الفرنسي، فقدم له القائد الفرنسي التشريفات اللائقة برجل شجاع وقائد محارب، وهنا استبدت ذكريات ايام الجهاد بالأمير وتملكه إحساس القائد العسكري عندما تخلله الظروف ويتخلى عنه الحلفاء، فتوجه إلى القائد الفرنسي بالقول: **لو كان لي رجال في مثل نظام و انضباط رجلك، لكنت الآن بفاس وليس أمامك**. ولم يطل الأمر حتى قدم قائد الجيش الفرنسي بالناحية الوهرانية الجنرال لامورسيار مصحوبة بأحد القادة الكبار وهو الجنرال كافانياكه وتوجه الجميع إلى مرسى جامع الغزوات، ومن هناك نقل الأمير عبد القادر واتباعه على متن سفينة "صولون" (Salon) إلى ميناء المرسى الكبير، وهناك بدأت المخاوف تساور الأمير عبدالقادر في مدى احترام الفرنسيين لعهودهم، فأكد له دوق دومال (باسم ملك فرنسا ما كان قد تعهد به له لامولیسیار سابقا, وأثناء ذلك قدم الحاكم العام الفرنسي للتعرف إلى الأمير، فاستقبله هذا الأخير على صهوة جواده وسط رجاله ، ثم تنازل له عنه كهدية بعد ان ترجل ليسلم عليه.

وعندما عاد إلى مقر إقامته بورصة لم يجد بدا من التحول عنها لتوالي الهزات الأرضية العنيفة بها، فانتقل إلى دمشق (1855م) بتفويض من السلطان ونزل بإقامة خصصها له الوالي العثماني فكانت مقر إقامته الدائم حيث تفرغ للقراءة ومراجعة كتب الفقه والتصوف والتفسير والحديث، ولم يشغله كل ذلك عن إقراء صحيح البخاري ويعض كتب الفقه بالجامع الأموي، أو القيام بأعمال البر والخير[1].

2- من مواقف الأمير الإنسانية

على أن أهم المواقف الإنسانية للأمير سجلها أثناء اشتعال الفتنة الطائفية بلبنان ودمشق خاصة ، فلم يتردد في حماية أهل الذمة حسبما تقتضيه الشريعة الإسلامية ، فتتح إقامته وإقامات أتباعه لاستقبال النصارى المهددين في حياتهم (10 من جويلية 1890 م)، ويعود الفضل إليه في إنقاذ حوالي 000 15 فرد منهم. وأثناء ذلك تصدى للفتنة، وذهب به إقدامه إلى حد التوجه في غفلة من المراقبين إلى زحلة حيث التقى بقائد الجند الفرنسي الذي نزل جبل لبنان، فأقنعه بالعودة إلى قواعده وعدم التقدم إلى دمشق ريثما حلت الدولة العثمانية مشاكلها الداخلية بنفسها، ولو اكتشف أمره آنذاك لأتهمه الكثيرون بالخيانة ، لكنه كان مقتنعا بأن ما فعله كان خيرا للجميع لأنه جلب مدينة دمشق مذبحة لا سبيل إلى تلافيها في حال تقدم القوات الفرنسية نحوها، ويتلك أمكن السيطرة على الوضع وتحولت تلك الأحداث من مسالة دولية تتجاوز صلاحيات الباب العالي إلى قضية عثمانية داخلية.

كان موقف الأمير عبدالقادر هذا مثار تقدير السلطان العثماني وإكبار وإجلال ملوك اوربا وحكوماتها، فمنحه العديد من ملوك ورؤساء الدول الأوسمة والنياشين اعترافا بموقفه الإنساني النبيل، نحصل من السلطان عبدالمجيد على الوسام المجيدي

3 - ملامح شخصية الأمير عبدالقادر وتوعية ثقافته.

لقد حظي الأمير عبدالقادر بوصف العديد من اتصل بهم أو تعرف إليهم أو تعامل معهم، فكانوا في مجملهم يشيدون بخصاله ويفتخرون بسجاياه ويقدرون مواقفه ويعتزون ببطولاته، وهذا ما يتطلب منا، في إطار رسم صورة صادقة ومعبرة لهذه الشخصية المتميزة، الرجوع إلى كتابات هؤلاء والاستشهاد بها، لأنها

1 أبو القاسم سعد الله، محاضرات في تاريخ الجزائر الحديث، ط3، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1982، ص45

فضلا عن الأوصاف التي تشملها ، فهي تساعد القارئ أيضا على تحديد أبعاد شخصية الأمير عبدالقادر والتعرف إلى سر نجاحه.

نستخلص من الروايات التي عرفت بالأمير عبدالقادر وحددت ملامحه انه كان مربوع القامة ، معتدل الجسم، أبيض اللون، أسود الشعر، كث اللحية، التي الأنف، أنهل العينين، أضبط، ، متواضعة ومتئدا في مشيته، جهوري الصوت، قوي اللهجة ، أجش النغم، وهو مع ذلك كان يتصف بالبشاشة والأدب ولين الطبع ، وفضل الابتعاد عن مظاهر التكلف والفخامة والأمة ، ويميل إلى حياة التقشف والبداوة[1].

4-وفاته

كان الأمر يتمتع بصحة جيدة في شبابه و شيخوخته على الرغم مما تحمله من نوائب الدهر و مصائب الزمن من جهاد و كفاح وأسر في سبيل الله والوطن، حيث تحمل ذلك يجلد و صبر و نفس قوية. وفي الساعة السابعة من ليلة يوم السبت 19 رجب 1300 ه 24 مايو 1883 م لبى نداء ربه بنفس راضية مرضية وذلك في قصره في قرية دمر بناحية دمشق عن عمر يناهز 76 سنة[2].

المحور الثاني: بصمة الأمير عبد القادر في ارساء و تطوير القانون الدولي الانساني

وبالرغم منْ أنّ الأمير عبد القادر آنذاك في وضعية المقاوم للاعتداء الأجنبي ضد بلده، وبالرّغم من أن جنوده لم يكونوا إلاّ مقاومين متطوعين، فإنّ مهمة الدفاع عسكريا على بلاده، لم تخلع عن الأمير عبد القادر إنسانيته العميقة، والتِي كان يستلهم تشبعه بها من ثقافته ودينه الإسلامي و لقد كانت له رؤيا مختلفة عن أعدائه و حتى من مختلف الحكام من العرب أو من الغرب و ذلك من خلال ما يلي:

1- رؤية الأمير للظروف الراهنة

أ- مفهوم الإنسان عن الأمير

والحق أن حياة الأمير عبد القادر السياسية تعرضت لأكثر من مريم سليا وإيجابا. وليس في كل ما يدعو إلى الغرابة: فهو الأمر الذي حارب فرتا لمدة سبعة عشر عاما، وهو في نفس الوقت الذي قام صداقة مع نابليون الات التي فرج عنه وسمح له بالتوجه إلى المشرق والإقامة به، وخصص له مبلغا ينفع له سنويا كتعويض على حجز حريته الغدر به وهو الذي ذكرته تقارير القناصل الأجانب بصفته حامي النصارى

1 المرجع نفسه، ص47

2 عبد الرحمن الجيلالي، ص41

صاحب الشخصية العربية الاسلامية المرموقة. وقد ظل طوال حياته يعامل كرجل دولة، وهو إلى جانب هذا كله رجل فكر متبحر في علوم الدنيا والدين. وقد كانت له آراء خاصة في قضايا العش والأخلاق واللغة والتصوف، مما يجعله أحد أبرز رجالات النهضة العربية المبكرين، على تمايزه عن جلهم بأنه رجل سياسة وفكر في آن واط مرت حياة الأمير عبد القادر بعد توليه إمارة الجهد ضد الجيوش الفرنسية الغازية عام 1832 إلى غاية انتقاله إلى المشرق الإسلامي بمرحلتين أساسيتين:

الأولى : حالة من الصخب الذي ينتج عن الحروب والمعارك وقوتها، وهي مرطة المقاومة والجهد،

الثانية : حالة من السكون الذي خيم على السجون التي مر بها الأمير، تخللتها قراءات مكثفة ومتنوعة وحوارات هادئة مع زواره حول قضايا الدين والتسامح والحرية والكرب والمرأة و الخيل وما إلى ذلك. وما يميز الأمير في هذه الفترة أنه يظهر للجميع بغير منظوره التقليدي المتمثل في القائد الحربي وزعيم الطريقة القادرية في الجزائر، فيكتشف "الآخر" أن الأمير يتصرف بسلوك عقلاني وقع مطيع بنكران الذات وتواضعها، كما أنه لا يتوانى في اظهار حشود معارفه الدنيوية و الاعتراف بالتفوق العلمي و المادي التلال "الآخر"[1].

ولنا في سيرة الأمير عبد القادر المشل الحي في كل الق، لأنه يمثل خلال القرن ١٩م في اعتقادي، الشخصية الإسلامية التي اختصرت فيها كل الجوانب التي تمثل مجد الحضارة العربية الإسلامية وقيمتها التاريخية و العلمية والسياسية و الاجتماعية ليس هينا في شخصية الأمير عبد القادر وكانت ربما تكفيه هذه الخصال الحميدة التي جلبت له التقدير والاحترام من اعدائه بالدرجة الأولى، وأضاف إليها منافي رجل العلم المتفتح على العلم فكانت شخصيته السمحة من صميم المثل العليا التي تسعى البشرية اليوم إلى ترسيخها للخروج من التعصب الفكري والممارسات الهمجية والوصول إلى علاقات إنسانية فاضلة بين على بناء البشر، لا فروق ولا حواجز تمليها الديانة و الثقافة و الحضارة أو غير ذلك مما كان سببا في ماسي بتي البشر على مر القرون[2].

ألم يسبق الأمير عصره في قرض الحوار البناء بين الأديان والثقافات؟ ألم يكن في قصة الشيم الإنسانية والقيم الروحية للإسلام الحق عندما تعرض بنو البشر للاضطهاد في أحدث دمشق الدموية في 1840م؟ ألم يكن الأمني في الصف الأول بين من أحبوا البشرية دون تمييز، وهو في هذا يحقق ما حققه المسلمون الأوائل وما هو من صايم مقاصد الرسالة المحمدية؟

ان الدوافع التي جعلت الأمير نموذجا للسماحة المطلقة، والتفتح العاقل، والاطلاع الواسع، والرحمة بجميع الخلق، هي تخلقه بالقران الكريم عملا بقوله تعالى: (ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتي هي أصن] (العنكبوت 46). ومن القرآن تعلم الأمير الإنصاف والموضوعية والكتب في الحوار مع المخالفين في العقيدة، فليس هنالك دعوى مسبقة باحتكار الحقيقة بل تحكيم للمنطق السليم بالبرهان المقنع

إن القارئ التراث الأمير يجد دون عناء كبير إشارات واضحة الحقيقة مشاعره الإنسانية قد تحدث الأمير من الإنسان الكامل بالمعنى الصوفي، ومفهوم الإنسان الكامل كان يتلبس في حسه صورة الإنسان مطلقا، فكان يتجسد مثلا في تلك الأموال من العظمة التي عبر عنها رفاقه من رجال الجهاد البواسل، إذ كانوا بتضحياتهم الخارقة يمثلون الإنسان الكامل في مضمار القضاء وبذل النفس نصرة للحق[3].

ب- الحوار مع الآخر:

اعتمد الأمير عبد القادر وسيلة الكتابة و أسلوب المخاطبة في محاورة الأخر"، وقد ذكر أن الإنسان يحتاج إلى أن تكون له قدرة على أن يعرف الآخر الذي هو شريكه، وهي إما إشارة و إما لفظ و أما كتابية".. و

---

1 أبو القاسم سعد الله، مرجع سابق182

2 الأمير محمد، تحفة الزائر في مآثر الأمير عبد القادر و أخبار الجزائر،ج2،ط2، دار النهضة، بيروت، 1964، ص513

3 المرجع نفسه

في تدوينه لسيرته الذاتية" تطرق الأمير عبد القادر إلى عدة موضوعات شملت الأنساب والعقيدة الإسلامية وموقفها من النصرانية و الروم وبعض تاريخ الأمة العربية. وقد اجتنب فيها أسلوب المفاخرة بينما أبرز فيها مظاهر التقارب والمودة بين الإسلام والمسيحية، مما يدل على ذهنية تفتح واجتهد في سبيل التفاهم بين الأديان والمعتقدات عند فئة من الفقهاء المسلمين لم يعرفوا غفة غير الشفة الإنسانية البكر التي لم تلقح بعلوم الحيلة إلا ما أدمجته الشريعة من منطق في التوحيد، و حساب في الفرائض، أو معلومات عن عقائد غير المسلمين من خلال كتب الملل.

و قد اجتهد الأمير عبد القادر في جعل أسلوبه في حل كتاباته مقاريا مع أسلوب "الآخر" الذي يحاوره و الذي يمارس العربية ببعض العصوية. فاستعمل مثله كلمات أجنبية مثل الري (الملك) والقيرا (الحرب والقوازيط (الحصف الخ...)

وقد استعمل الأمير عبارات شعبية من الدرجة الجزائرية حتى في النصوص الرسمية والمراسلات الهامة والاتفاقيات التي أبرمها مع القادة الفرنسيين، رغبة في الإفهام والفعالية مع "الآخر". ولا يشك في مستوى الأمير عبد القادر الثقافي و اللغوي والك تمكن كتابه من العربية و أسرارها.

يمكن تلخيص أفكاره في ثلاث محاور شكلت جوهر الحوار بينه وبين "الآخر":

الأول: إثبات صحة الرسالة المحمدية وبيان احتوائها لجميع الرسائل السماوية بما في ذلك المسيحية، وبالتالي رسم آفاق واسعة إمكانية التفاهم بين المسلمين و النصارى.

الثاني : الدفاع عن الحضارة العربية الاسلامية و إبراز أصالتها التاريخية، و "اجتماعها مع حضارة الروم في إبراهيم" وذكر ما كان بين العرب و النصارى من مخالطة". جديرة بأن تبعث اليوم علاقات جديدة للتعاون بين الحضارتين.

الثالث: عدالة قضيته المتمثلة في المطالبة بتنفيذ الاتفاقية التي أبرمها مع ابن ملك فرنسا لنقله إلى ديار الاسلام بالمشرق عندما جنح السلم[1].

ومما تسجله أيضا هو أن عملية الحوار بين الأمير عبد القادر وبين الفرنسيين قد استرسلت منذ عهد الكفاح المسلح، فقد كانت لقاءاته مستمرة مع قادة الحرب من أمثال الماريشل بيجو "Mnrechal Bugeand، وكان مع ممثلي الإدارة الفرنسية ومع الشخصيات المدنية والعسكرية، زيادة عن مراسلاته معهم، الأمر الذي يكون قد هيأ الأمير على نحو كبير إلى النهوض بمهمة الحوار من غير تردد. كما أن نشاط الأمير الدبلوماسي، خاصة مع بعض الدول الغربية مثل إسبانيا وبريطانيا وحتى الولايات المتحدة، والذي تم بصورة مباشرة أو من خلال المبعوثين كانت حلقة ضمن هذا الجهد التواصلي الذي انعقد بين الأمير وبين العالم الغربي.

ومن البديهي القول أن أسر الأمير قد غير جذريا من طبيعة الاتصال، إذ أن القصد من أي شكل من أشكال التواصل و الحوار كان تطبيق شروط ذلك الحوار، أي تطبيع الهزيمة وجعلها قضاء وقدرا. وكان المستعمر قد عودنا منذ دخوله أرض الجزائر على توزيع منشورات تجعل من احتلاله للبلاد قضاء وقدرا ومشيئة أرادها الله ولا مجال لردها أو الاعتراض عليها[2].

لقد كان الأخر" يدرك ما كانت عليه الأمة آنذاك من ركون إلى اليأس و القدرية، فسعى من ثمة إلى أن يستغل ذلك الوضع الروحي والسيكولوجي العام على نحو يخدم وجوده في توطيد الاحتلال، من هنا فإن محاورتهم الأمير وهو مأسور مقيد الإرادة، إنما كان القصد من ورائها هي جعله يتقبل المآل على أنه أمر

---

1 اسماعيل العربي، المقاومة الجزائرية تحت لواء الأمير عبد القادر، ابن خلدون للنشر، الجزائر، 2002، ص117

2 المرجع نفسه121.

واقع، لا مجال لتغيره، بل إن مقاصد ذلك الحوار البعيدة كانت أخطر من ذلك، إذ هدفت إلى إلحاق الهزيمة الروحية النفسية بالخصم بعد أن تمت هزيمته العسكرية.

ج - احترامه للعهود و المواثيق:

وينبغي كذلك أن نشير إلى انطباق أعمال الأمير عبد القادر مع ما جاء به البروتوكول الإضافي في بابه الثالث ، والذي يوضح ما يجب أن يكون عليه سلوك المقاتلين في أثناء العمليات العدائية ، أي في أطراف النزاع في اختيار وسائل القتل ليس حقا مطلقا لا تحده قيود ، إذ يحظر قتل الخصم أو إصابته أو أسره باللجوء إلى الغدر ، ويعتبر من قبيل الغدر تلك الأفعال التي تثير ثقة الخصم مع تعمد خيانة هذه الثقة

ويظهر ذلك بجلاء في عدم خداع الأمير عبد القادر للرسل والوافدين ، واحترامه للعهود والمواثيق ، فقد ذكر في رسالته إلى (د يميشال) قوله تعالى : يا أنها الذين آمنوا أوفوا بالعقود(سورة المائدة، الآية 01)...إن وقوع المودة و المداعاة بالخير معكم لها شروط في شرعنا ، و أي شرط بشرط علينا لا تحل لنا مخالفته ولو ننقطع دونه عن آخرنا ، حتى إن من تمام الوفاء بالشرط أن المسلم الأسير في يد النصارى ، إذا أمنوه وأطلقوا قيده لا يجوز له الهروب بغير إذنهم في شريعتنا.

ويبرز الدليل أكثر على احترامه للعهود ونبذه لمظاهر الخداع في رده على دي ميشال دائما الذي بعث إليه برسالتين يطلب فيهما منه وقف القال ، بعد ذلك رد عليه الأمير يمكنك أن تثق بأن أي التزام يمكن أن نتوصل إليه سيكون محل احترام من جانبي ، ويمكنك الاعتماد علي لأنني لم أتخل أبدا عن كلمتي , حتى أن نابوليون الثالث اعترف بذلك قائلا له عندما كان في السجن لقد كنت عدوا لفرنسا ولكنني مع ذلك مستعد أن أقوم نحوك بالعدل الشامل لشجاعتك وشخصيتك وصبرك في الشدة ، وكذلك أشعر بأن الشرف يقتضي أن أضع حدا لسجنك وأن أعتمد تمام الاعتماد على كلمتك). وللإشارة فإن مراسلات الأمير مع (دي ميشال) توجت بعقد معاهدة سميت باسم القائد الفرنسي نفسه في 1834/ 12 / 26 ، نصت على احترام الدين والعادات إلى جانب التمثيل الديبلوماسي ، كما نصت كذلك على تبادل الأسرى وحرية التجارة1.

2- اسهامات الأمير في حماية القانون الدولي الانساني

إن سيرة الأمير العطرة، حافلة بشتى صور التسامح، الذي أوصى به الإسلام أتباعه، في معاملة مع الانسان عموما سواءا من معتقده أو ممن يخالفونه، حرا أم من الأسرى المعاملة التي تليق بإنسانيتهم، وحقوقهم المشروعة والتي أقرتها المواثيق الدولية حديثا، كما أنه لم يرفع السيف إلا في وجوه الذين جاءوا من وراء البحار، لنهب البلاد واستذلال العباد، ونشر المسيحية في أرض سكانها مسلمون، ونشر الفرنسية في أرض أهلها بالعربية ناطقون، لذلك كان لا مناص من جهادهم والإغلاظ لهم، حتى يخرجوا من أرض العروبة والإسلام، وهذا شق ربما أهمله بعض الدارسين وهم يحاولون فقط تقديم صورة الأمير المتسامح، وتجريده من بعده الجهادي المشروع في زمانه ومكانه وسياقه التاريخي، كما أن الأمير في مجال معاملة الآخر المسالم والباحث عن أسرار هذا الدين كان في قمة التسامح.

أ- نظرة الأمير لغير المسلم

و يتجلى ذلك عبر:

- **التسامح الديني مع الأخر**

1 عبد الحميد زوزو، مراسلات الأمير عبد القادر مع الجنيرال دي ميشال، ط3، دار هومة للطباعة و النشر، الجزائر، 2006، ص3

2- اسماعيل العربي، مرجع سابق، ص 45

إن المتأمل في التسامح الديني الذي عرف به الأمير في أثناء وجوده في الجزائر وخارجها في المنفي، يدرك أن هذا المجاهد كان على مستوى من الوعي الإنساني، المتفهم لحقيقة الإنسان و الإنسانية التي لا تؤمن بالحدود والحواجز والاختلاف بين البشر، ويتجلى واضحا من خلال مؤلفات الأمير أنه أراد أن يكون صلة الوصل بين الإنسان الشرقي والإنسان الأوروبي، أي بين المسلم والمسيحي، إذ أن " أساس الديانة، و أصولها، لا خلاف فيها، بين الأنبياء، من أدم، إلى محمد عليه الصلاة والسلام، فكلهم يدعون الخلق إلى توحيد الإله وتعظيمه فكثيرا ما كان يوجه الأسئلة إلى مجالس العلماء وكبار الفقهاء في المغرب و المشرق و فرنسا؛ وكان يجيب بتفه عن القضايا التي ترد عليه من كبار علماء في الغرب مسهبا في الإجابة وحريصا على عدم ترك أي استفسار بدون توضيح.

كان الأمير عبد القادر يعتقد بضرورة حماية حرية العقيدة، هذه الحرية التي هي من أهم أسس الإسلام يقول الأمير في إحدى رسائله: "إن تطبيق التسامح يتمثل في عدم إكراه أي مؤمن بلين على ترك دينه.

- **الحوار مع رجال الكنيسة**

لم يلبث أن حاور الأمير عبد القادر طيلة حياته "الآخر"، متمثلا في عسكريين و إداريين ودبلوماسيين ورجال كنيسة، بل حتى في أعضاء الماسونية التي كانت آنذاك مجهولة الهوية والأهداف الذي حل المسلمين وظهرت لهم بمظهر المجمع العلمي من أبرز الذين تحاور معهم الأمير عبد القادر شخصية القس ديبوش (Dupuch)، أسقف الجزائر في بداية الاحتلال الفرنسي، وهو الذي ألف كتابا بعنوان "عبد القادر في قصر ميوز" عام 1849، دافع فيه بكل قوة عن الأمير وعن حقه في الحرية و اختيار جهة منتقاه بدل الأسر في فرنسا، التي لم تقف حكومتها بالعهد الذي أعطته للأمير عبد القادر بأن تنقله إلى المشرق؛ فوجد نفسه حبيسا فوق أراضيها.

ولعل فترة السلب الحرية التي قضاها الأمير ورفقاءه فوق الأراضي الفرنسية وما تعنيه من معاناة و آلام وحسرة، قد أنجبت بالمقابل تخوله في حوار حضاري وديني مع زواره من الفرنسيين والأجانب. و بما وفره له السجن من مجال للقراءة و الكتابة التي كانت المحرك الأساس للحوار هو الدفاع عن أحوال الأئمة والتأمل في أحوال المعتدين و التساؤل عن أسباب الانكسار وعن طبيعة المرة الحضارية الكبيرة بين الجانبين،

هذه الانطباعات نقشت في ضمير عبد القادر ووعيه، وجعل ذهنه ينصرف من خلال تأليفه الكتب و الرسائل إلى أهمية الانفتاح العلمي والفكري على العالم الجديد وأهمية الإسهام الإنساني في الحوار الإنساني القائم في العالم، ونشأت من ثم صداقات له مع مفكرين وقادة فرنسيين، واختلط بالمجتمع العلمي الفرنسي حتى أبهرهم بسعة فقه عمق قراءاته، مثقلة بتراث علمي قديم ، ومن ثم اختاره المجمع العلمي الفرنسي، و هو أعظم مجامع العلم على وجه الأرض آنذاك لكي يكون عضوا فيه، وهي لمحة لها دلالتها الكبيرة ليس فقط على عمق تقدير العلماء هناك لأمير وإنما أيضا على عمق الصلة والمصداقية التي حظي بها الأمير في الأوساط العلمية والفكرية الفرنسية، ودلالة أيضا على كثافة التواصل مع الحياة العلمية و الثقافية[1].

ب- معاملته للأسرى:

ما يحتفظ به التاريخ عن الأمير عياد الشادر، هو أنه قد عمل أثناء معاركه ضد الغزو الاستعماري الفرنسي للجزائر، على سن وتطبيق مجموعة من القوانين حول كيفية معاملة الأسرى المعتقلين من

1 أبو القاسم سعد الله، مرجع سابق، ص44

جيش المعادي، وفي الوقت الذي هللت فيه فئة المتعلمين والمثقفين الفرنسيين لاحتلال الجزائر، ووضعت قيم الثورة الفرنسية والقيم الديمقراطية التي كانت تتبجح بها وراء ظهرها، من خلال تخريب ممتلكات الجزائريين لإرغامهم على الاستسلام، فحالة الحرب تعطينا حق تخريب البلاد بأن نحرق المحاصيل في وقت الحصاد ، و أن نشن بغارات مفاجئة لتخطف الرجال والأغنام ولقد كان يتم ذلك ، وفي الوقت الذي كان الأمير عبد القادر يدعو إلى أن أي فرنسي يتم أسره في المعارك يجب أن يعتبر أسير حرب ، وأن يعامل كذلك إلى أن تتاح فرصة تبادله مقابل أسير جزائري، كما حرم تحريما قاطعا قتل أسير مجرد من السلاح ، ولعل هذا يتوافق مع ما تضمنته المادة الثالثة من اتفاقية جينيف الثالثة (السالفة الذكر) التي جاءت بعد أزيد من قرن من الزمن، والتي أشارت إلى واجب معاملة من أبعدوا عن القتال بسبب المرض أو الجروح أو الأسر معاملة إنسانية ، دون أن يكون العنصر اللون أو الدين أو العشية أو الجنس أو النسب تأثير على هذه المعاملة[1] .

- **الحرية الدينية للأسرى:**

فيما يخص حرية الأسرى من ممارسة شعائرهم الدينية والتي كرستها اتفاقية جينيف في مادتيها 34 و 37 ، إذ تحدثت المادة الأولى إضافة إلى حرية الأسرى من ممارسة واجباتهم الدينية، على حريتهم إلى حضور الاجتماعات الدينية الخاصة بعقيدتهم ، في حين أكدت المادة (37) على هذه الحرية عندما اشترطت تعيين نجل دين من مذهب الأسرى أومن مذهب مشابه له عندما لا يتوفر في هؤلاء الأسرى رجل دين ، و في هذا الجانب ، نجد أن الأمير عبد القادر كتب إلى أسفق الجزائر كلمات تستحق أن تكتب بالذهب فقد أرسل القسيس إلى معسكري وسوف لن يحتاج لشيء ، وسوف أعمل على أن يكون محل احترام لأنه سيكون له وظيفة مزدوجة أنه رجل دين وممثل لك[2].

- **معاملة الأمير للمرأة الأسيرة:**

جاء في نص المادة (14) من الاتفاقية السابقة الأسرى الحرب في جميع الأحوال الحق في احترام أشخاصهم وشرفهم ، و يجب معاملة النساء من الأسرى باعتبار الواجب لجنسهم ، من جميع الأحوال يجب أن يحصلن على نفس العاملة الجنسية التي يعامل بها الرجال ، و جاء في الفقرة الثانية من المادة (88) أنه : لا يحكم على النساء من أسرى الحرب بعقوبة أشد، أو يعاملن أثناء تنفيذ العقوبة معاملة أشد من المعاملة التي يعامل بها النساء في قوات الدولة الحاجزة لذات الفعل.

تتجلي بعض الصور عن معاملة الأمير عبد القادر للنساء الأسيرات ، لم نعثر على أبلغ مما قاله تشرتشل في وصفه الأمير فقد ورد على لسانه أن الأمير عبد القادر كان شديد الإباء من رؤية السجينات ، ذلك أن التفكير في أن ان تصبح المرأة ضحية للحرب كان في حد ذاته مصدر قلق دائم له[3].

الأمير محمد، مرجع سابق، ص 5151

2 عبد الحميد زوزو، مرجع سابق، ص4

الأمير محمد، مرجع سابق، ص 5203

خاتمة :

خلاصة القول أن الأمير عبد القادر خرج من حرب جهادية وقد مني بالهزيمة والخذلان لكنه ما لبث أن تحرك مجسدا ما كان يثوي في باطنه من إيمان عميق بالإنسان وراح يعزز الصلات مع الآخرين، بعد ما كان متوقعا له أن يتجمد في خلوة يطوي الجوانح على حقد ضد من أضاعوا منه الوطن والسلطان، لكنه صمم بفيض إنساني وروحي كبير وأبى إلا أن يشق طريقا أمام البشرية يحكمه السلام والاحترام المتبادل، جاعلا من سماحته المثال الذي ينبغي على الإنسانية أن تقتدي به فتتغاضى عن أخطائها وتتداعى إلى المحبة.

مما سبق يظهر جليا دور الأمير عبد القادر في ارساء قواعد القانون الدولي التي استقى مبادئها من خلال ممارساته و معاملاته التي كانت مضرب للمثل في إنسانيته آنذاك، فمن الخطأ اعتبار بداية القانون الدولي الانساني مع معاهدة جنيف حيث سبق أفكار الأمير كل التقنينات و المعاهدات المعترف بها في هذا المجال

المراجع

- **أبو القاسم سعد الله**، محاضرات في تاريخ الجزائر الحديث، ط3، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1982
- **اسماعيل العربي**، المقاومة الجزائرية تحت لواء الأمير عبد القادر، ابن خلدون للنشر، الجزائر، 2002
- **الأمير محمد**، تحفة الزائر في مآثر الأمير عبد القادر و أخبار الجزائر،ج2،ط2، دار النهضة، بيروت، 1964
- **الحاج أحمد الشريف الزهار**، مذكرات، تحقيق و نشر أحمد توفيق المدني، الشركة الوطنية للنشر و التوزيع، الجزائر، 1974
- **عبد الحميد زوزو**، مراسلات الأمير عبد القادر مع الجنيرال دي ميشال، ط3، دار هومة للطباعة و النشر، الجزائر، 2006
- **عبد الجليل التميمي**، بحوث و وثائق التاريخ المغاربي، الدار التونسية للنشر، تونس، دون سنة
- **عبد الرحمن الجيلالي**، تاريخ الجزائر العام، الجزء 4، دار الثقافة، بيروت، الجزائر، 1980
- **زكية زهرة**، التنافس الفرنسي الانجليزي على الجزائر و موقف الباب العالي منه، رسالة ماجستير، د. ذكر الجامعة، الجزائر، 1997
- **ناصر الدين سعيدوني**، محمد عثمان باشا، ضمن مشاهير المغاربة ، دون دار نشر، الجزائر، 1995